كنوز من أدب فيكتور هوغو

بقلم : الاستاذ رشيد الجواهري

لا اظن احداً من الأدباء والمتادبين لايعرف شخصية فيكتور هوغو شاعر فرنسا العظيم وفيلسوفها الكبير في القرن التاسع عشر تلك الشخصية التي لمعت في سماء الغرب زهاء قرن من الزمان والتي ملأت الادب الفرنسي بتلك الروائع الخالدة التي يتغنى بها أبناء فرنسا اليوم وينسجون على منوالها ماكرت الدهور وتعاقبت الأجيال . وطريقته العصرية في الأدب هي عنوان نبوغه الذي رفعه الى قمة المجد وحلق به في سماء الشهرة . امتاز هذا الشاعر الحكيم بوفرة الاطلاع والتعمق في التفكير والقدرة على تصوير الأشياء بحذق ومهارة تدلان على عبقرية فذة وروح فياضة بالعواطف السامية النبيلة . وقد كتب ايضاً في النقد والاجتماع والسياسة مادهش العقول وحير الافهام وتداولت مؤلفاته القيمة ايدي الملايين من الغربيين وهم معجبون بها مفتونون بما حوتها من علم غزير ونقد لاذع وتصوير للطبيعة خلاب وغور في الاجتماع عميق وتضلع في السياسة متين . وناهيك عما كتبه من القصص الخالدة التي ابرزها للمجتمع الفرنسي آيات محكمات اضافت الى الادب الفرنسي الجديد ثروة جديرة بالتقدير نخص منها بالذكر . البوساء . ونوتردام دوباري . وهان الاسلاندي . وبوغ جارغال . وآخر ايام المحكوم عليه بالقتل . والمشتغلون بالبحر . والانسان الضاحك وثلاث وتسعون . الخ الخ . ولذا بالغ الفرنسا ويون في تعظيمه واجلاله ونصبوا له تمثالا رائعاً في باريس . وعقد واله الاحتفالات الباهرة لذكراه . وقد اشتهر هذا الشاعر بوطنيته ومقاومته للظلم والظالمين والوقوف امام الجبارة الطغاة بالمرصاد كلما سنحت له الفرص وواتته الظروف ولذا كان عدواً لدوداً لنا بليون الثالث امبراطور فرنسا في ذلك العصر ولعل معظم شهرته كان من تأثير قصائده الرنانة التي هجاه بها والتي ملأها قذفاً وشتماً حتى الف منها كتاباً اسماه نابوليون الصغير .

وامتاز الشاعر برقة عواطفه وفرط حبه لاولاده بصورة غريبة مدهشة حتى جلب له هذا الافراط في الحب هموماً لاتنفى وكلوماً لاتندمل ، أوقفته وقفة اليأس والقنوط وحطمت قلبه الكبير على صخرة اشجانه والآمه وقد تمثل فيه ذلك في مرثيته الخالدة التي رثى بها ابنته وهي يوم اختطفتها يد المنون وهي تتنزه في زورق مع زوجها على نهر السين . حيث انقلب بها الزورق واودعها في قرارة النهر . اهتزت هذه الحادثة المروعة شعور الشاعر وحركت اعماق قلبه الرقيق فراح ينبض بالعبقرية ويتدفق بالنبوغ وقدحت زناد قريحته الفياضه فراحت تصور الآمه تصويراً رائعاً خلاباً وهكذا تألق نجمه في سماء واسعة من الخيال وراح يضيف الى الادب الباكي الحزين ثروة طائلة لاينفد معينها ، وقد افرغ فيها الاطلاع الغزير والتعمق في الفلسفة والتفكير في الخالق وعظمته وخلق السموات والارضين والتوسل والتوبة ورجاء العفو والمغفرة مايقف المتأمل أمامه خاشعاً ضارعاً بطول الباع وحدة اليراع وغزارة المادة وعمق التفكير واننا لنقتطف هذه المرثية الخالدة القراء كنموذج من ادب فيكتور الباكي تلك المرثية التي فاضت بالينابيع الزاخرة من عاطفته الغزيرة ودارت له الواسعة وتدفقت تدفق السيل بالمعاني الرائعة . والآيات المحكمات قال تحت عنوان . (الى فيلكيه)

الآن باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عيني . الآن انا تحت غصون الأيك واستطيع التفكير في خلق السموات . الآن خرجت مصفراً من المأتم الذي اظلمت منه روحي وشعرت بان ضلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي . الآن استطعت ان اجلس على شاطئ البحر متأثراً من هذا الأفق اللطيف الهادئ وأن اخص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر الى الازهار وهي في الحدائق . الآن ياربي حصلت لي سكينة محزنة ؛ استطيع بسببها ان ارى بعيني راسي الحجر الذي اعرف انها نامت في الظل تحته نومة ابدية الآن قدرقت عواطفي . بهذه المناظر الآلهية مابين سهول وغابات وصخور واودية ونهر كالفضة .

ولما رأيت عجزي ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي امام جلالك فجئت اليك يا الله يامن يجب علينا الايمان به واحضرت لك قطع هذا القلب الذي كسرته وهو مملوء بحمدك .

جئت اليك يا الله معترفاً بانك رؤف رحيم حليم وبانك إله حي وأقر بأنك

وحدك تعلم مانصنعه وبان الانسان ماهو الاريشة في مهب الريح .

اقول بان القبر الذي يغلق على الاموات يفتح الفلك الأعلى وان مانحسبه في هذه الدنيا نهاية هو البداية اقرايها الآله العظيم وانا راكع بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ؛ مطلق ، لانهاية له . اقر بان انجراح قلبي هو خير وهو عدل . لان الله اراد ذلك . لااعتراض اصلاً على جميع ماصابني بارادتك . فالنفس تتدحرج في الابدية من مأتم لمأتم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل . لانرى من الاشياء الاطرفاً واحداً والطرف الآخر غاطس في سرابيل مرعب فالانسان يتحمل الاذى بدون ان يطلع على الاسباب وجميع مايراه قصير زائل لافائدة فيه .

انت تلقى الانسان دائماً في طريق الشك ولم تردان يكون له على هذه الأرض يقين ولاسرور .

ولا يملك الأنسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يعط شيئاً في ايامه السريعة الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضي وحياتي . جميع ماتراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت هذه الأشياء واقعة فانا اقر بانها حدثت كما يلزم ان تحدث .

يالله العالم مظالم والحانه التي لاتتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء ايضاً والأنسان ماهو الاذرة في هذا الظلام الغير المتناهي . فهذا ليل يصعد فيه الابرار وتهبط الاشرار . اعرف بان لك يالله اشياء اخرى كثيرة تشتغل بها عوضاً عن ان تشفق علينا جميعاً وبان الولد الذي يموت ويخلف الحزن لأمه لايضرك منه شيء .

اعرف بان الثمر يسقط من الريح الذي يهزه وبان الطير يفقد ريشه والزهر يفقد رائحته وبان الخليقة دولاب كبير لايمكنه ان يدور بدون ان يسحق احداً .

الشهور والايام وامواج البحر والعيون الذارفة بالبكاء تمر جميعها تحت السماء الازرق . اعرف ياربي انه يلزم للعشب ان ينبت وللأولاد ان يموتوا . لعلك في سمواتك ماوراء طبقة الغيم وفي اعماق الزرقة الناعمة التي لاتتحرك تصنع اشياء مجهولة يدخل فيها الم الأنسان كانه عنصر من عناصرها . لعل هلاك الأشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدة لمقاصدك التي لاتحصى . طوالع نحوسنا تسير تحت نواميس واسعة لايغيرها شيء ولا يرقق عواطفها شيء وليس في الامكان ان تاتي المراحم الآلهية فجأة وتغير ناموس العالم .

اتوسل اليكم يالله بان تنظر لنفسي وتعتبر بانى اتيت لعبادتك خاضعاً خضوع الصبي . ولينا لين المرأة . واعتبر ايضاً بانى منذ طلوع الفجر اشتغلت وقاتلت وفكرت وسعيت وجادلت وانا افسر الطبيعة للناس الذين يجهلونها وانير كل شيء بنورك . وانى عملت الواجب علي في هذه الدنيا وانا اقتحم المهالك والمخاطر ولايمكن ان انتظر هذا الجزاء ولاأقدر ان اتأمل بانك ايضاً تنزل يدبطشك على رأسي المنحنى وبانك انت الذي ترى قلة حظى تأخذ ايضاً ولدى على عجل .

واعتبر بان النفس التي اصيبت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى وبانى اجترأت على سبك وعلى رفع صوتى عليك كالولد الذي يرمى البحر بحجر .

اعتبر ياربي ان المرء قد يشك في الله حينما يشتد عليه الألم . وان العين التي تبكى كثيراً تعمر في النهاية . وان الشخص الذي يلقيه مأتمه في اظلم هاوية لايمكنه ان يفزع اليك وهو لايراك .

اليوم وانا ضعيف القلب كالوالدة انحنى على اعتابك تحت سمواتك المنكشفة واشعر في مرارة المي بانى استترت بنظرة وقعت منى على العالم ياربي انا اعترف بان الانسان اذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون . فها انا تركت الشكوي وتركت السب . فدعنى ابكي . واحسرتاه دع الدموع تجري في جفونى لانك خلقت البشر لذلك . دعنى انحني على هذا الحجر البارد واقول لولدى اتشعر بانى هنا .

دعنى اكلمها في المساء حين يسكن كل شيء وانا منحن على مابقى من جسدها وهي كانها ملك ينصت لي وكانها تفتح في الليل عينيها السما ويتبين واحسرتاه لم يبق في الدنيا شيء يسليني فالتفت نحو الماضى بعين الاشتياق ونظرت الى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير . وسأرى تلك اللحظة حتى مماتى . تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعى وصرخت قائلاً . ماذا إذاً . الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكليه .

لاتغضب على ياربي ان قلت هذا الآن جرحى سال دمه زماناً طويلا والضيق في نفسي لم يزل شديداً وقلبى وان خضع لكنه لم يسلم ولم يرض لاتغضب ياربي حيث يصعب علينا ان نخرج نفسنا من هذه الأكدار العظيمة . انت ياربي اعلم بان اولادنا لازمون لنا اذا رأي الأنسان ذات يوم في حياته وهو بين اكداره واتعابه وفقره والبلاء الذي رمته به اقداره قد ولد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال انه رأى باب السموات تفتح له . فاذا رأى مدة سبع عشرة سنة ولده الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل واذا عرف ان هذا الولد الذي يحبه هو نور في قلوبنا وضياء في بيوتنا